ثقافة التسامح وجدلية العلاقة بين الآنا والاخر

الاستاذ

المساعد الدكتور

حميد نفل

النداوي(*)

المقدمة:

تنامت الدعوة الى تعميم ثقافة التسامح واكتسبت زخماً كبيراً بعد اعلان مبادئ التسامح الصادر عن منظمة اليونسكو عام ١٩٩٥ واعلان الامم المتحدة لعام ١٩٩٦ عاماً دولياً للتسامح، منسجمة في ذلك مع القراءة العلمية والموضوعية للتاريخ والتي تشير الى انه من الصعوبة بمكان استتباب الامن والنظام وتعزيز الوئام الاجتماعي والسلم الاهلي وايجاد البيئة المناسبة للتقدم والابداع في غياب التسامح لان البديل عن التسامح هو التعصب والتطرف والعنف.

لذلك فلا غرابة ان يصف الكثير من الفلاسفة والمفكرين مجموعة سياسية بالديمقراطية اذا كانت هذه المجموعة تحترم ثلاثة مبادئ ديمقراطية هي: مبدا التسامح: ومبدا الفصل بين السلطات ومبدا العدالة. وهكذا كان تاريخ الفلسفة يشير دائما الى ان التسامح كان شرطا اساسيا من شروط تطورها وديمومتها لان الفلسفة هي المجال الارحب للتسامح كونها تبحث عن الحقيقة ولاتدعي امتلاكها وهذا اعتراف بالتعدد والاختلاف واحترام الاخر.

ولكن هذه الرؤية لم يتم اعمالها على صعيد العلاقات الدولية بل أن الصراعات والحروب كانت هي السائدة على مر العصور. كما ان مختلف الايديولوجيات التي سيطرت على الساحة السياسية في

(*)كلية العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

الوطن العربي خلال القرن الماضي وحتى يومنا هذا من قومية الى اصولية دينية الى اشتراكية فديمقراطية لم يكن للتسامح مكان في فلسفاتها وخطابها وبرامجها.

والموضوع الاساس والشغل الشاغل الذي يجب التركيز عليه هو ما يجري في العراق منذ ٢٠٠٣/٤/٩ ولحد الان والضرر الكبير الذي لحق بهذا البلد نتيجة الصراعات السياسية والطائفية والعرقية علاوة على سياسة الاحتلال الامريكي والتدخل السافر لبعض دول الجوار في الشأن العراقي والذي يتطلب مراجعة فكرية وسياسية يشارك فيها الجميع تسود فيها لغة الحوار على لغة الصراع والتأكيد على حقيقة ان سياسة الغاء الاخر واقصائه لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح .

ومن اجل تسليط الضوء على هذه الافكار فأن الدراسة سوف تتناول الموضوع من خلال المباحث الاتية:-

١. التسامح: المفهوم والمصادر
٢. ثقافة التسامح جدل الفكر وتوظيف السياسة
٣. العملية السياسية في العراق وثقافة التسامح

المبحث الاول:- التسامح : المفهوم والمصادر

لايزال التسامح كمفهوم محل جدل على الاقل بين العرب والغرب[١] والتسامح في اللغة العربية يعني الموافقة والقبول والتساهل ويعني كذلك الجود والكرم والسخاء كما يعني العفو.

وفي لسان العرب نجد الكلمة سمح السماح والسماحة: الجود، وسمح سماحة وسموحة وسماحاً: جاد، ورجل سمح وأمرأة سمحة، والمسامحة:

---

[١] ومن حقنا ان نتساهل ماهو ((القاسم المشترك بين كلمة Toleration)) الانكليزية وكلمة التسامح العربية ، الجواب هو ان القاسم المشترك لايزال ضئيلاً جداً أو بالاحرى ان الفوارق بين الكلمتين هي اكثر اثاره للاهتمام من التشابهات بينهما ، انظر سمير الخليل ، التسامح في اللغة العربية في سميرالخليل وأخرون التسامح بين شرق وغرب ترجمة ابراهيم العريس دار الساقي ، بيروت ١٩٩٢ ص٦

المساهلة وتسامحوا: تساهلوا، وفي الحديث المشهور السماح رباح' اي المساهله في الاشياء تربح أصحابها، وكما قال جرير.

غلبَ المساميح الوليد سماحة وكفى قريش المعضلات وسادها

وفي الحديث: يقول الله عز وجل: أسمحوا لعبدي كأسماحه الى عبادي الاسماح: لغة في السماح يقال: سمح واسمح اذا جاد واعطى عن كرم وسخاء[٢].

وبنفس المعنى يذهبً مختار الصحاح: سمح–السًماح والسًماحة الجود وسمحَ به يسمَح وسماحاً وسماحة أي جاد وسمحَ لو اعطاه'، والمسامحه: المساهلة وتسامحوا معناها تساهلوا[٣].

وفي ذات الاتجاه يعرض المنجد سمحَ بفتح العين سَمُحَ – سماحاً وسموحاً وسماحة وسموحةً –وسَمحاً وسماحاً المعنى صار من اهل الجود والسماحة وسامَحَه في الامر وبالامر: ساهله، لاينهُ وافقهُ على مطلوبه، تسَمح وتسامحَ تساهل فيه كلها تصبُ في معنى المسامحة[٤].

اللفظة–سَمحَ أو أسمَحَ الرباعية والثلاثية وكما وردت في لسان العرب لآبن منظور ومختار الصحاح والمنجد كلها تعني المساهلة سواء كانت هذه الكلمة فعلاً ثلاثياً او رباعياً او مصدراً او أسم مصدر كلها كما اشرنا تعني المعنى نفسه الذي تروم اليه وهو المساهلة.

ولعل كلمة التسامح من الامثلة البارزة التي تدل على التباعد بين أصل الكلمة في اللغة ومدلولها الاصطلاحي الجديد فلفظة التسامح لغوياً تعني السخاء من موقف استعلاء ومن ثم فلا مساواة بين السخي المتكرم والمتكرم

---

[٢] محمد بن مكرم بن منظور الافريقي . المصري ، لسان العرب ط١ . ج٢ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥ ص٤٨٩ ، ٤٩٠ .

[٣] محمد بن ابي بكر ابن عبد القادر الرازي. مختار الصحاح. دار الكتاب العربي. ص ٣١٢

[٤] فؤاد افرام البستاني. المنجد. دار المشرق. بيروت. ١٩٨٦ ص ٣٤٣.

عليه ((في التسامح يوجد المتسامح في مستوى أعلى والمتسامح معهُ في مستوى اسفل))[٥].

وتملك اللغة الانكليزية كلمات ثلاث ((Toleration)) و((Tolerance)) و((Tolerationism)) وقد حاول بعض الكتاب التمييز بين هذه الكلمات بما يتيح لهم تعيين الاوجه المختلفة من التسامح[٦].

غير ان هذا الاختلاف في الدلالة اللغوية لمفهوم التسامح لم يمنع من الوصول الى نوع من التقارب في التعريف الاصطلاحي للتسامح[٧] حيث حرص الكثير من الباحثين والكتاب العرب المعاصرين الى عدم الارتهان الى المعاني والدلالات اللغوية وليواكبوا الرؤية الغربية في هذا الجانب التي انصبت على ضرورة تجاوز المعنى اللغوي الاصلي للكلمة والاعتراف بأنها تطورت وأصبحت مفهوماً اصطلاحياً[٨] تحمل في احشائها عنصرين أساسين يتفاعلان: الحق والواجب، حق الفرد أو الجماعة في الاختلاف من جهة وواجب الفرد او الجماعة احترام حق الغير في الاختلاف من جهه اخرى[٩].

---

[٥] ناجي البكوش ، التسامح عماد حقوق الانسان ، في ناجي البكوش وأخرون ، دراسات في التسامح المجمع التونسي للعلوم والاداب والفنون وبيت الحكمة ، تونس ١٩٩٥ ص١١ .

[٦] لمزيد من التفصيل حول الدلالات والمعاني المختلفة لمفهوم التسامح في اللغة الانكليزية انظر بيتر ب- نيكولسون التسامح كمثال اخلاقي في سمير الخليل واخرون التسامح بين شرق وغرب مصدر سابق ص٢٨ – ٢٩ وكذلك انظر الشيخ محمد مجتهد شبستري: أشكالية التسامح في رضوان السيد واخرون التسامح وجذور اللاتسامح – مركز دراسات فلسفة الدين بغداد ٢٠٠٥ ص ٨١ . وانظر كذلك محمد عابد الجابري. قضايا في الفكر المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.ط ٢ .٢٠٠٣.ص ٢٨.

[٧] د. حميد فاضل حسن . مبدأ التسامح وأنساقه الفكرية ودوره في تعزيز العملية السياسية الديمقراطية . العلوم السياسية . جامعة بغداد العدد ٣٣ السنة ١٧ تموز ٢٠٠٦ ص٢٧٤

[٨] ولكن هذا لم يمنع من تعرض المفهوم الاصطلاحي الغربي لبعض النقد وسوء الفهم او التفسير واحياناً الرفض من البعض سواء في الغرب او العالم الاسلامي فبينما رأى البعض ان هذا المفهوم اساسه تسامح القوي مع الضعيف وبالتالي اعتبرهُ مفهوماً يكرس عدم تكافؤية العلاقة وعدم المساواة بين اطرافها ويثير شعور التكبر او شعور التفضل والتصدق من قبل المسامح والشعور المضاد من قبل المسامح رأي البعض الاخر ان القصد من المفهوم هو الترويج لتسامح الشعوب المستضعفة مع قوى الاستعمار والاستكبار بغرض تدجين تلك الشعوب والحد من مقاومتها لقوى الاستعمار في حين رأى الفريق الثالث ان مفهوم التسامح يكرس الافراط في المساواة بين الصواب والخطأ وبين اصحاب الحق وأصحاب الباطل وبين الشرفاء والمجرمين .
د. عبد الملك منصور حسن المصعبي في مفهوم التسامح افكار أوليه ، جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات ص٣ http / mansour dialogue – org /Arabic / Fikr2 html

[٩] ناجي البكوش ، التسامح عماد حقوق الانسان. مصدر سابق.ص ١١

وبهذا الخصوص يرى محمد عابد الجابري ان التسامح يعني ((احترام الحق في الاختلاف والحق في التعبير الديمقراطي))[١٠] اي ان فكرة التسامح تعني القدرة على تحمل الرأي الاخر والصبر على أشياء لايحبها الانسان ولايرغب فيها بل يعدها احياناً مناقضةً لمنظومته الفكرية والاخلاقية[١١] والتسامح يعني ايضاً ((ان نحيا نحنُ والاخرون على اختلافنا في عالم واحد يضمنا))[١٢]. وهو كذلك ((موقف يتجلى في الاستعداد لتقبل وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق بأختلافات السلوك والرأي دون الموافقة عليها))[١٣].

قصارى القول على حد تعبير بيتر ب – نيكولسون ان ((التسامح هو فضيلة الامساك عن ممارسة المرء سلطته في التدخل بآراء الاخرين وأعمالهم علماً ان هذه الاراء والاعمال تختلف عن اراء الشخص المذكور واعماله في مايظنه مهماً ، الى حد انه لايوافق عليها اخلاقياً))[١٤].

ولا يكتمل وضوح مفهوم التسامح الا عندما تكون له ((حدود واضحة يجب أن يتوقف عندها الجميع وان لايتجاوزها عندما يتحول هذا المفهوم الانساني الى محاولات فردية وجماعية عبثية لاتنفع بل تضر، حدود التسامح هي بقاء الدول والمجتمعات متماسكة وآمنة وسليمة من التفكك والانهيار))[١٥].

---

[١٠] محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر . مصدر سابق. ص٣٠ .

[١١] عبد الحسين شعبان. فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي . دار النهار - بيروت ٢٠٠٥ ص٦٢

[١٢] د . هاني الجزار . في اسباب التعصب . نحو رؤية تكاملية ، عين للبحوث والدراسات الانسانية والاجتماعية مصر ٢٠٠٥ ص٢٣

[١٣] احمد خورشيد النورجي . مفاهيم في الفلسفة والاجتماع . دار الشؤون الثقافية . بغداد ١٩٩٠ ص٨٢

[١٤] بيتر ب . نيكولسون التسامح كمثال اخلاقي . مصدر سابق ص ٣٣

[١٥] خالد الجنفاوي . حدود التسامح . بوابة العرب 6/18/2007 Khaled aljenfawi ayahoo com

فالتسامح لايعني بأي حال من الاحوال التنازل عن المعتقد او الخضوع لمبدأ المساومة وانما يعني القبول بالاخر والتعامل معهُ على اساس العدالة والمساواة بصرف النظر عن افكاره وقناعاته الاخرى[١٦].

ظهرت كلمة ((التسامح)) أول ما ظهرت في كتابات الفلاسفة في القرن السابع عشر الميلادي زمن الصراع بين البروتستانت والكنيسة الكاثوليكية حينما نادى اولئك بحرية الاعتقاد وطالبوا الكنيسة البابوية بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله والانسان[١٧] وبالتالي فأن االتسامح وفق التجربة الغربية والفكر الغربي المعاصر هي الاجابة المطلوبة أنذاك .... فألاختلافات قادت في فترة من الفترات الى التعصب والانكفاء والعزلة ودفع المجتمع الغربي ثمن ذلك[١٨] واذا كان التاريخ الحديث قد شهد ولادة مفهوم التسامح فأن التعاليم الدينية والمنطلقات الفكرية والفلسفية قد سبقت ذلك بكثير وربما يصح التاريخ لبداياتها ببداية الرسالات السماوية والتي مثلت الدعوة الى التسامح بتعبيرات وصياغات متعددة ويتوافر التراث الاسلامي الفقهي والفلسفي على كثير من المرتكزات والاسس والاحكام التي من شأن تطويرها الاسهام في بلورة مفهوم افضل واوسع قبولاً للتسامح وفي تأهيل وتكريس ثقافة التسامح[١٩].

ويبين القران الكريم الحكمة الالهية في التنوع والاختلاف بين الناس (﴿)[٢٠] وعلى هذا الاساس يدعو الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم الى تبني لغة المنطق والعقل والحوار في التعامل مع المشركين وغيرهم(﴿)[٢١] وبخطاب لاضغط فيه ولا اكراه (لا اكراه في الدين)[٢٢] والدعوة الى

---

[١٦] محمد محفوظ . في معنى التسامح : التسامح وافاق السلم الاهلي في رضوان السيد واخرون التسامح وجذور اللا تسامح . مركز دراسات فلسفة الدين بغداد ٢٠٠٥ ص١٨٦

[١٧] د . محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر مصدر سابق ص ٢٥

[١٨] محمد محفوظ في معنى التسامح التسامح وافاق السلم الاهلي ، مصدر سابق ص١٨٤

[١٩] د عبد الملك منصور حسن المصعبي في مفهوم التسامح افكار اولية .
http / Mansour dialogue . org / Arabic / fikr 2 . html

[٢٠] سورة هود . الاية ١١٨

[٢١] سورة النحل الاية ١٢٥

التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة (

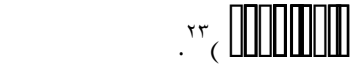

)[٢٣].

وفي موقف هابيل من اخيه قابيل عندما هم بقتله دروس في التسامح

المستند الى مخافة الله (

)[٢٤].

وجسدت السيرة النبوية الشريفة اقتران القول بالعمل والتأكيد على الروابط الانسانية وكبح جماح القوه ويقول الرسول الاكرم (صلى الله عليه وسلم) (الرفق رأس الحكمة) وهكذا جاءت وثيقة المدينة–الصحيفة–والتي يعدها البعض اول دستور مكتوب في العالم تناول موضوع الحقوق والواجبات، حيث تبدأ الصحيفة بتوضيح حقوق كل فئة بالاسم وتعترف بديانة الاخر وحقه في الاختلاف والتمايز فلكل فريق دينه ولكل جماعة التزاماتها وعليه تحاول الصحيفة (الدستور) تنظيم العلاقات لكل فئة ضمن اطار القانون المشترك[٢٥].

ولنا في موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) اثناء فتح مكه مثالاً ودرساً كبيراً في التسامح حيث اجتمع رجال قريش عند المسجد الحرام ينتظرون ما سيقوله الرسول الكريم بحقهم وهم يعلمون ما اقترفوا بحقه وحق المسلمين من اذى ، ولم يمض وقت طويل حتى خاطبهم الرسول الاكرم. ما تظنون اني

---

[٢٢] سورة البقرة – الاية ٢٥٦

[٢٣] سورة فصلت الايه ٣٤

[٢٤] سورة المائدة الايات ٢٧- ٣٠

[٢٥] وليد نويهض قراءة في دستور المدينة في محمد عابد الجابري واخرون . حقوق الانسان في الفكر العربي . دراسات في النصوص . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ط١ – ٢٠٠٢ ص ١٤٣

فاعل بكم) وقالوا اخ كريم وابن اخ كريم ، فكان جواب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وفي ذات الاطارحرص الخلفاء الراشدين على اشاعة قيم العدل والحرية والمساواة وهو ما دعى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى اطلاق مقولته المشهورة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً، او ما قاله الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) مخاطباً عامله في مصر مالك بن الاشتر ((لاتكون عليهم (اي على الناس) سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم فأنهم صنفان، اما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق ....))[٢٦].

وتناولت الفلسفة الاسلامية عبر مراحلها المختلفة هذه الموضوعات فأخوان الصفا يشددون على ان ((اختلاف اصل الدين لايعيب الدين في شيء فهنالك مسالة محمودة عند قوم ومذمومة عند قوم اخرين ، وقد ينتج عن الخلاف فوائد منها:-

انه يدفع الى طلب الحجة والى البحث العميق ويكشف العيوب فينبه المعيب ويصلح عيوبه لذا قيل اختلاف العلماء رحمة[٢٧].

اما المعتزلة فكانت حركة تنظير عقلي للدين فأعلموا العقل في النص واخضعوا تفسيرهم للمنطق العقلي، وساقوا اي اختلاف ظاهر بين النص والعقل بأستثناء العبادات لصالح الاخير، فما فعله المعتزله بالنسبة الى الدين الاسلامي يشبه الى حد ما فعله فلاسفة اليونان الاوائل بالنسبة للميثولوجيا اليونانية[٢٨].

في حين تقوم فلسفة ابن عربي على ما يمكن تسميتهُ ما بعد التسامح وابراز القدرة الانسانية على تجاوز مفهوم التسامح مع الاخرين من اجل التواصل والحوار وهذا ما عبر عنه بقوله:

---

[٢٦] **عبد الحسين شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي . دار النهار . بيروت ٢٠٠٥ ص ٩٥**

[٢٧] **شمس الدين الكيلاني : مفاهيم حقوق الانسان في المذاهب الاسلامية في محمد عابد الجابري: حقوق الانسان في الفكر العربي دراسات في النصوص مصدر سابق ص٣٤٣**

[٢٨] **المصدر نفسه - ص٣٥٣**

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرأن
أدين بدين الحب انى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

ويعلق منصف المرزوقي على الابيات الثلاثة بالقول: ان ما يدعوننا اليه ابن عربي من موقف ديني وروحاني بحت ليس ان نتسامح مع عقائد الاخرين وانما أن نستملكها وهو الموقف الذي نادى به المشرع العالمي في اعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي عندما اشار الى ذلك بقوله ((تشكل الثقافات بما فيها من تنوع وخصب وبما بينها من تباين وتأثير متبادل جزءً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً[٢٩].

اما الفلاسفة المسلمون الاخرون فقد اشاروا ايضاً الى الفروق بين الافراد وبين الجماعات فالفارابي يشير بشكل واضح الى اختلاف الانسان عن اخيه الانسان في مقدار حظه من القوه الناطقة[٣٠] والغزالي يتحدث عن اناس لايحبون الا الله تعالى، واناس لايعرفون لذة المعرفة ولاحب الله ويسعون للجاه والرئاسه والشهوات البدنية واناس وسط بين هؤلاء واولئك[٣١].

ويبلغ التسامح قمته في موقف ابن رشد من اراء المخالفين والخصوم حينما يلوم الغزالي على كونه لايحاول ان يتفهم موقف الخصم بل يحكم بفساده دون اعتبار المقدمات التي ادت اليه فيقول ومن العدل كما يقول الحكيم ارسطو ان يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي به لنفسه، اعني ان يجهد نفسه في طلب الحجج لخصومه كما يجهد نفسه في طلب الحجج لمذهبه وان يقبل لهم من الحجج النوع الذي يقبلهُ لنفسه))[٣٢].

---

[٢٩] نقلا عن هيثم مناع : الانسان الكامل في الثقافة العربية – الاسلامية في : محمد عابد الجابري ، حقوق الانسان في الفكر العربي - مصدر سابق ص ٣٧٦ ٣٧٧-

[٣٠] محمد علي ابو ريان . تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٨٣ ص ٢٧٤- ٢٧٥

[٣١] المصدر نفسه. ص ٥٠٠-٥٠٧.

[٣٢] محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر مصدر سابق ص ٢٣

والمتابع لتطور الفكر السياسي الغربي يستطيع ان يلمس بدايات التعاطي مع هذه المفردة ففي معرض اشادته بالديمقراطية والنظام المطبق في اثينا يشير باريكليس[٣٣] الى ان ((ديمقراطيتنا ترتكز الى مبدأين اساسين:

الاول هو المساواة امام القانون

الثاني حرية التعبير عن الرأي

وبالاضافة الى المساواة امام القانون والى حرية التعبير عن الرأي فأن باريكليس حدد العلاقة الاخوية بين المواطنين كركيزة ثالثة وتتمثل هذه العلاقة بالتسامح وحسن المعاملة وتقديم العون للاخرين))[٣٤].

واحدث سقراط تحولاً في وظيفة الفلسفة فبعد ان كانت منصرفة الى البحث في مشكلات الطبيعة طالب سقراط من خلال مقولته ((اعرف نفسك بنفسك واعرف انك لاتعرف)) بتوجيه بحثها نحو الانسان[٣٥] وان غاية الفلسفة في نظر سقراط هي صياغة النفس الانسانية وطبعها على الحق والخير والجمال وتحقيق مجتمع فاضل[٣٦].

وبتواضع كبير يرى سقراط ان معرفة الانسان محدودة وهو بحاجة ماسة الى التعلم والتواضع ففي محاورة الدفاع بعد ان اخبره صديقه شريفون عن قول كاهن معبد دلفي ان سقراط اكثر الناس حكمة قال سقراط انه تعجب وأراد ان يحل هذا اللغز ((لانني عليم ان ليس لدي من الحكمة كثير او قليل))[٣٧] وفي مكان اخر يقول ولقد جرى الناس على تسميتي بالحكيم اذ خيل لهم انني

---

[٣٣] زعيم اثيني ٤٩٩ – ٤٢٩ ق . م اصبح رجل اثينا الاول بعد الحرب الميدية وقد اشتهر بأفكاره ومبادئه الديمقراطية في اعطاء الشعب حق الاشتراك في السلطة العامة ومراقبة اعمالها انظر مارسيل بريلو – جورج ليسكيية ، تاريخ الافكار السياسية . الاهلية للنشر والتوزيع والاعلان بيروت ١٩٨٦ ص٢٥

[٣٤] المصدر نفسه . ص ٢٥

[٣٥] محمد جلوب فرحان . دراسات في فلسفة التربية مطبعة التعليم العالي – الموصل ١٩٨٩ ص ١٧

[٣٦] المصدر نفسه ص١٨.

[٣٧] حسام الالوسي . الفلسفة اليونانية قبل ارسطو . دار الحكمة للطباعة والنشر بغداد ١٩٩١ص ١٦٤

مافتئت احمل الحكمة التي تعوزهم ولكن الله ايها الاثينيون هو الحكيم الأوحد ولعله اراد بجوابه ان الحكمة في البشر ضئيلة او معدومة[٣٨].

وكانت فكرة التسامح الحديث قد ارتبطت بالمسألة الدينية عند بداياتها لدى الفيلسوف جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ الذي عالج هذه المسالة في اهم كتاباته (رسالة في التسامح) التي حررها في عام ١٦٨٥ و لم تنشر الا في عام ١٦٨٩ و ينطلق لوك في هذه الرسالة من (تحليل مادي للسلطة السياسية و يبرهن على انها غير قادرة ماديا و نفسيا على اجبار المواطنين على الاخذ بهذه العقيدة او تلك بما انه لا قيمة لاي عقيدة الا اذا تم اعتناقها بحرية ومن هذه المقدمة يستنبط لوك بعد ذلك النتيجة التي فرضت نفسها عليه و هي انه يتعين التمييز باكبر قدر من الوضوح بين الدور الخاص لكل من الدولة والكنيسة)[٣٩].

لان الدولة ينصب هدفها على حماية حقوق الانسان و السهر على مصالحهم اما الكنيسة فيتمثل هدفها في الحث على العبادة و اقامة الطقوس التي تقود الناس الى الخلاص.

ويترتب على ذلك انه يتعين على الكنسية ان تتقيد بحدود الكنيسة و يحرم عليها ان تمتد الى الشؤون المدنية باختصار يتعين على الكنيسة ان تكون منفصلة و متميزة تماما عن الدولة ويترتب على هذا الفصل واجبات متبادلة بين الجانبين اي واجب التسامح من جانب الدولة وواجب التحفظ من جانب الكنيسة[٤٠].

لذلك يفرض لوك على الدولة ان تضمن التعبير الحر فوق اراضيها لجميع المعتقدات السياسية والفلسفية والدينية بشرط ان لا تخل تلك المعتقدات بالنظام العام، لأن كل البشر يملكون الحق في الحرية الطبيعية ولكنها حرية

---

[٣٨] المصدر نفسه ص ١٦٤.
[٣٩] كريستيان دولا كامباني . الفلسفة السياسية اليوم . ترجمة نبيل سعد عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية . القاهرة . الطبعة الاولى ٢٠٠٣ ص ٥٣
[٤٠] المصدر نفسه. ص ٥٤.

مشروطة بالأخلاق والقانون الطبيعي وجوهر القانون الطبيعي هو العقل ("لقد ولدنا أحراراً ، تماماً كما ولدنا عاقلين") والذي يجب أن يستخدم بشكل صحيح لرسم آفاق سليمة للبشر.

ويعود الفضل لفولتير (١٦٩٤– ١٧٧٨) في دقة وروعة التعبير عن مفهوم التسامح فقد كان جوابه عن سؤال ماهو التسامح؟ ((انه نتيجة ملازمة لكينونتنا البشرية اننا جميعاً من نتاج الضعف: كلنا هشون وميالون للخطأ لذا دعونا نتسامح بعضنا البعض ونتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل وذلكم هو المبدأ الاول لقانون الطبيعة المبدأ الاول لحقوق الانسان كافة))[٤١].

وكانت حصيلة وتفاعل المبادىء الانسانية التي اشاعتها الديانات السماوية اضافة الى النتاج الفلسفي والفكري انتشار قيم الحرية والتسامح والدعوة الى اعمالها للوصول بالمجتمع الانساني الى غايته المنشودة.

المبحث الثاني:

ثقافة التسامح: جدل الفكر وتوظيف السياسة

يمكن القول ان اعلان الامم المتحدة حول التسامح اضفى على هذا المفهوم ابعاده الثقافية والسياسية والقانونية حينما اشار الى ان ((التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولآشكال التعبير وللصفات الانسانية لدينا، ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد انه الوئام في سياق الاختلاف. وهو ليس واجباً اخلاقياً فحسب وانما واجب سياسي وقانوني ايضاً، والتسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام ، ويسهم في احلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب[٤٢] وتمثل هذه الافكار المقدمات الصحيحة التي لايمكن بدونها الحديث عن نتائج وتقدم على صعيد العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين الدول

---

[٤١] كارل بوبر : التسامح والمسؤولية الفكرية . في سمير الخليل واخرون . التسامح بين شرق وغرب ترجمة ابراهيم العريس . دار الساقي . الطبعة الاولى بيروت ١٩٩٢ ص ٧٦.

[٤٢] اعلان مبادىء بشأن التسامح . منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ١٦ تشرين الثاني١٩٩٥ .

والشعوب او حتى على صعيد البلد الواحد ، ولكن هذه الافكار لم يتم تبنيها والعمل بموجبها فعلى المستوى العالمي اوضحت التجربة الماركسية – اللينينية ونموذجها السوفياتي ان ((الماركسية لم تسقط كمنهجية ولكن سقط مشروعها الراديكالي لتغيير العالم))[٤٣]، والذي دفعه الى اتباع رؤيه تقوم على ان اي نقد يوجه لهذه التجارب هو بمثابة تآمر وخيانه عظمى لايمكن السكوت عليها تحت ذريعة مواجهة النظام الرأسمالي وكان من ابرز نتائج هذا التوجه هو الجمود والانغلاق وعدم الانفتاح على الصعيد الداخلي وهذا ما قاد الى غياب المبدأ الحاكم في الاحزاب الماركسية– اللينينية الا وهو مبدأ ((المركزية الديمقراطية)) وتراجع الحديث عن ديكتاتورية البروليتاريا بأعتبارها الطبقة المؤهله لقيادة التحولات السياسية و الاقتصادية والاجتماعية نحو المجتمع الشيوعي لصالح اللجنه المركزية والامين العام للحزب واقتصر دور المنظمات الحزبية والجماهيرية على دور((الحزام الناقل)) وهذا ما قاد الى اتساع دور الدولة وحَد من حق النقد والحوار وتشخيص الاخطاء وكان السبب في وأد روح المبادرة والابداع. ولم يكن الحال افضل في العلاقة مع الاحزاب والتيارات السياسية الاخرى فقد جرى التعامل معها بقسوة شديدة واجبر قسم منها على الانضواء في ((جبهات وطنية)) يتحكم فيها الحزب الشيوعي.

وعلى صعيد العلاقات الدولية والتعامل مع الاخر المختلف فكرياً وسياسياً واقتصادياً بدء صراع بأشكال مختلفة للسيطرة على المواقع الاستراتيجية والموارد والاسواق تحت حجج وذرائع لايمكن تصديقها والقبول بها فالاتحاد السوفياتي كان يصور هذا الصراع على انه بين قوى السلم وقوى الحرب، مابين نظام اقتصادي واجتماعي اكثر اتفاقاً وتلاؤماً مع مقتضيات التطور الانساني الهادف هو النظام الاشتراكي وبين نظام اخر يتصادم ومنطق

---

[٤٣] السيد يسين : من اجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر . حوار اجراه عبد الاله بلقزيز . المستقبل العربي السنة ٢٨ العدد ٣١٩ مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ٩/ ٢٠٠٥ ص٣٢

التطور التاريخي[٤٤] نظام تسيره الاحتكارات ويتغذى على الحروب ويستمد قوته من استغلال الاقلية للاغلبية[٤٥] هو النظام الرأسمالي.

اما المعسكر الرأسمالي فكان يرى في الاتحاد السوفياتي ودول اوربا الشرقية انظمة سياسية ديكتاتورية لاتقيم وزناً للديمقراطية وحقوق الانسان من خلال تصوير الولايات المتحدة والغرب كقلعة للحرية.

ومثلت حقبة الحرب الباردة سلسلة متصلة من الصراعات اختلفت في حدتها وادواتها واساليبها من مرحلة الى اخرى وبما يعبر عن شكل الصراع وشموليته بين القوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والذي تمحور حول ثلاثة اشكال رئيسية[٤٦]:

١. صراع فكري بين الرأسمالية والشيوعية بما له من انعكاسات اقتصادية وسياسية.
٢. صراع عسكري وبشكل ادق سباق تسلح تقليدي ونووي بحيث اصبح اي تقدم يحرزه طرف يمثل خساره للطرف الاخر.
٣. صراع على النفوذ والحلفاء خاصة في العالم الثالث تبلور في صورة نزاعات أقليمية.

وهكذا فأن مصطلح ((الحرب الباردة)) انما يشير في الواقع الى ((الصراع على النفوذ الذي اعقب الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي حيث كانت سياسة كلاً من القوتين تسعى الى

[٤٤] ق . افانا سيف . اسس الفلسفة الماركسية . ترجمة عبد الرزاق الصافي ، دار الفارابي . بيروت دار النهضة بغداد ص ٢٤٩ .

[٤٥] يشير تقريرللامم المتحدة ان ٣٥٨ شخصاً من كبار الاثرياء في العالم يساوي حجم مصادر ثروتهم النقدية حجم المصادر التي يعيش منها ملياران وثلاثمائة مليون شخص من فقراء العالم و بعبارة اخرى ان عشرين في المائة من كبار اغنياء العالم يقتسمون فيما بينهم ثمانين في المائة من الانتاج الداخلي الخام على الصعيد العالمي وان الغنى والثروة ارتفعا بنسبة ستين بالمئة في الولايات المتحدة الامريكية بين عام ١٩٧٥ – ١٩٩٥ غير ان المستفيدين من هذا الارتفاع الكبير في الغنى والثروة لايتجاوز عددهم نسبة واحد بالمئة من الشعب الامريكي . للمزيد من التفاصيل حول الموضوع انظر . محمد عابد الجابري مصدر سابق ص ١٤٠.

[٤٦] اماني محمود فهمي : حقوق الانسان في علاقات الشرق والغرب . السياسة الدولية ، العدد ٩٦نيسان ١٩٨٩ ص ٨١

توسيع دائرة نفوذها وتقليص دائرة نفوذ الخصم وحيثما وجد تداخل في دوائر النفوذ زاد التوتر واشتد الصراع وربما جرت معارك))[٤٧].

وقد نجحت الولايات المتحدة في توظيف كافة ادواتها السياسية والاقتصادية والاعلامية في هذه الحرب وجر الاتحاد السوفياتي الى سباق تسلح وانفاق عسكري لايقوي عليه بلغ ذروته في عهد الرئيس الامريكي الاسبق رونالد ريغان الذي اطلق مبادرة الدفاع الاستراتيجي ((حرب النجوم)) اضافة الى اسباب داخلية تتعلق بالاتحاد السوفياتي قادت الى انهياره وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة والتفرد في قيادة العالم ورفض الاخر واقصائه في ظل ما يسمى ((النظام الدولي الجديد)).

ولم تكن بلدان العالم الثالث والوطن العربي على وجه التحديد خارج حلبة هذا الصراع بل ان هذا الصراع كان في اغلب مراحله بين هذه الشعوب ومع السياسات الغربية التي كانت تقاتل على مختلف الجبهات من اجل هدف واحد هو مصالحها وان هناك ثابتاً واحداً اساسياً في موقف الغرب والباقي متغيرات، والموقف من العرب او من الاسلام او من الصين او من اليابان اومن ايه دولة اخرى في العالم يتغير دائماً وقد يقفز من النقيض الى النقيض اذا اقتضى ذلك منطق ((الثابت)) وليس الثابت في تحركات الغرب شيئاً اخر غير المصالح فعندما تمس مصالح الغرب او يكون هناك ما يتهددها تغير الموقف))[٤٨].

وكان هذا الصراع وما يزال ضد الغرب لا كشعوب وحضارة بل ضد سياسته الاستعمارية وهيمنته الامبريالية اما الحضارة الغربية سواء الجانب الصناعي فيها او الجانب التنظيمي والمعيشي والفكري والعمراني فقد استقبلتها الامم والشعوب المستعمرة بالاقتباس منها والنسج على منوالها وما زالت

---

[٤٧] **محمد عبد الله الصايح . تطور ظاهرة الصراع الدولي وافاقها في القرن الحادي والعشرين . رسالة ماجستير غير منشورة كلية العلوم السياسية . جامعة النهرين ٢٠٠٥ ص٤٦**

[٤٨] **محمد عابد الجابري ، مصدر سابق ص ١٢٧ .**

تفعل[٤٩]. اذ قد يستعين الانسان على ادراك ذاته بأدراكه خصائص الاخر مثلما حاول هذا التمرين المعرفي المفكر المصري محمد رفاعه الطهطاوي من خلال اكتشافه الاخر في باريس ومثلما رام ذلك المصلح التونسي خير الدين في كتابه اقوم المسالك، ويسمى الطاهر لبيب هذه الطريقة المعرفية بـ(مطاردة الذات في فضاءات الاخرية)[٥٠].

وبعد حسم الصراع لصالح الولايات المتحدة وانهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية التي يمثلها بدأ الخطاب السياسي الامريكي يؤكد على ضرورة نشر القيم الغربية في العالم والامريكية منها على وجه الخصوص وبهذا الصدد تبرز تنظيرات جوشوامورافيشك وهو من الباحثين البارزين في السياسة الخارجية الامريكية والمعبر بصدق عن توجهات المحافظين الجدد في ان (تلعب الولايات المتحدة الامريكية دوراً في نشر الفهم الغربي للديمقراطية وحقوق الانسان من خلال الدبلوماسية الهادئه والمساعدات ومن خلال العمل العسكري اذا لزم الامر)[٥١].

وتم التعبير عن هذا الدور "الهيمنة" بعبارت مثل الزعامة والقيادة والريادة لجعلها مستساغة اكثر من قبل العالم وهذا ما اشار اليه الرئيس الامريكي الاسبق ريتشارد نيكسون ((اننا نعيش في عالم تنفرد فيه الولايات المتحدة كقوة عظمى ..... فالزعامة الامريكية للعالم سوف تبقى عنصراً لاغنى عنه عبر العقود القادمة ويضيف ان العالم يحتاج الى قيادة امريكا عسكرياً وسياسياً واقتصادياً واكثر من اي شيء اخر يحتاج العالم الى قيادتنا في مجال الفكر))[٥٢].

---

[٤٩] المصدر نفسه، ص٩٩.

[٥٠] الطاهر لبيب . صورة الاخر – العربي ناظراً ومنظوراً مقدمة لدراسات وبحوث ندوة مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٩٩ نقلاً عن مصطفى الفيلالي . صورة الاخر . المستقبل العربي العدد ٣١٨ السنة ٢٨ اب ٢٠٠٥ ص ١٣

[٥١] محمد فهيم يوسف، حقوق الانسان في ضوء التجليات السياسية للعولمه في برهان غليون حقوق الانسان الرؤى العالمية والاسلامية والعربية. مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة كتب المستقبل العربي (٤١) بيروت ٢٠٠٥ ص ٦٣

[٥٢] ريتشارد نيكسون – امريكا والفرصة التأريخية . ترجمة محمد زكريا اسماعيل . بيروت مكتبة بيسان ص ٦٣ . ١٩٩٢ ص ١٩.

وقد دلت المسيرة السياسية للولايات المتحدة على ان معرفة الانسان الامريكي لنفسه وتعظيم دوره وتأهيل ذاته لقيادة العالم كانت حاجباً له عن ادراك الاخر بل حتى الاقرار بأهليته للرقي وهذا يتقاطع مع ثقافة التسامح حسب ما افاد به مفكرون معتدلون امثال نعوم تشومسكي وايما نويل تود[٥٣].

وبناء على ما تقدم يصح الرأي الذي يقول ((ان مركزية نظرة الانسان الامريكي الى ذاته في رسالته التبشيرية وفي منزلته الكونية لايمكن ان تجود بنصيب من التقدير للانسان الاخر وليست تحتمل جانب الصواب في ما يكون لهذا الاخر من توجه فكري او من نزعة خصوصية او زاد ثقافي بل ان هذه المركزية الفكرية تقوم على عقيدة اقصائية لامكان فيها للاختلاف والتنوع[٥٤].

فبينما تجتمع في الـ((أنا)) كل الصفات الايجابية فأن الاخر يجسد كل الصفات السلبية وبهذا المعنى تم تصوير الشرق في الغرب في فترة ولادة القوميات وتعزيزها في العصر الامبريالي ، حيث لزم على المنتصرين الغربيين تبرير سيطرتهم على الاخرين ليس عن طريق مصالحهم الاقتصادية او تفوقهم العسكري ولكن عن طريق تفوقهم العرقي والثقافي ودونية هذا الاخر))[٥٥].

ان عالماً يفتقر الى العدل الى الاعتراف بالاخر وبحقه في امتلاك خصوصية خاصة به وفي تقرير مصيره سواء كان هذا الاخر فرداً او اقلية دينية او عرقية او كان شعوباً او اماماً مبني اصلاً على الظلم على اللاتسامح ، وبالتالي فلا معنى لرفع شعار التسامح مالم يكن مقروناً بالعدل الذي ينطلق من حق الغير في الاختلاف والتعبير عن افكاره وسياساته[٥٦] ورغبته في اجراء حوار عقلاني وصادق يهدف الى تحقيق مصالح واهداف الطرفين وليس وفقاً لقواعد يحددها الغرب وفي ظل ظروف تخدم مصالحه السياسية واهدافه من

---

[٥٣] مصطفى الفيلالي . نحن والاخر . مصدر سبق ذكره ص ١٣.

[٥٤] المصدر نفسه، ص١٣.

[٥٥] فرنر كلاوس روف . هل اليمقراطية حكر على الغرب في جان فراسوا بايار . الاسلام والفكر السياسي . المركز الثقافي العربي – بيروت لبنان – الدار البيضاء المغرب الطبعة الاولى ٢٠٠٠ ص٢٣ .

[٥٦] محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر ، مصدر سابق ص ٣٢ .

الصدام والحوار معاً[٥٧] وعند الوقوف على طبيعة العلاقة بين الانا والاخر على صعيد الوطن العربي يمكن تأشير اربعة تيارات سياسية تنازعت فيما بينها طيلة القرن الماضي ولحد الان هي ((التيار القومي والتيار الليبرالي والتيار الاسلامي والتيار الماركسي والتي انتجت اربعة خطابات (القومي–الليبرالي–الاسلامي–الماركسي) وكان كل خطاب يقوم على قضية رئيسية يتحرك من خلالها فأشكالية الخطاب القومي قائمة على فكرة الوحدة العربية واشكالية الخطاب الليبرالي قائمة على مسألة الحرية والديمقراطية واشكالية الخطاب الاسلامي قائمة على الهوية واشكالية الخطاب الماركسي قائمة على الاشتراكية[٥٨].

وكان كل تيار سياسي يشدد على منطلقاته الفكرية والرؤية السياسية التي يطرحها ، فالتيار القومي يشدد على الوحدة العربية لان تحقيقها سيفضي الى تحقيق الحرية والاشتراكية . والتيار الليبرالي يرى ان مشاكل الوطن العربي تكمن في غياب الحرية والديمقراطية وللتيار الاسلامي منحى اخر حينما يؤكد ان الحفاظ على الهوية هو المفتاح لحل المشاكل الاخرى والتيار الماركسي الذي يشدد على هدف الاشتراكية.

وفي المحصلة النهائية لم يتحقق شيء على ارض الواقع ولا زالت المشكلات على حالها واصبحنا بعيدين عن الوحدة العربية وبات الحفاظ على الهوية مهمة شاقة وعسيرة وتبخر حلم الاشتراكية ولم تتحقق الديمقراطية وفي ظل هذه الازمات نحن في حاجة ماسة الى مستوى جديد وعال من الجد وخطاب شامل جامع يعلو على الخطابات الفرعية والى رؤية ومشروع يشتمل على العناصر الاتية[٥٩]:

١. تحقيق الحريات الاساسية للانسان مستقاة من النموذج الليبرالي.
٢. تحقيق العدالة الاجتماعية مستقاة من النموذج الاشتراكي.

[٥٧] جميل مطر . حوار الحضارات السياسي اولاً . المستقبل العربي السنة ٢٨ العدد ٣٢٥ اذار٢٠٠٦ ص ٥٧ .
[٥٨] السيد يسين . من اجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر . مصدر سابق ص ٤١ .
[٥٩] المصدر نفسه ص ٤٢

٣. تحقيق الاصالة الحضارية مستقاة من النموذج الاسلامي.

ومثل هكذا مشروع يتطلب مشاركة واسعة من قبل النخب السياسية والحزبية في السلطة وخارجها ورجال الفكر والثقافة والاعلام ومؤسسات المجتمع المدني لآن ((التحدي الاساسي الذي يواجه العالم العربي يتعلق بقدرتنا على اللحاق بالركب الحضاري وهنا يتطلب الامر تقديراً سليماً لحاجاتنا الملحة ومتطلباتنا الاساسية بشأن التغيير والتقدم، عبر التطور والوسطية والاعتدال والبحث عن المشترك الانسانسي والاعتراف بالاخر والتسامح في التعامل معه وهو ما نطلبه لانفسنا من الاخر ايضاً))[٦٠].

((المبحث الثالث))

العملية السياسية في العراق وثقافة التسامح

اذا كانت السياسة وفقاً للمفهوم اليوناني ((فن الاتحاد بين الناس من اجل توجيه الحياة الاجتماعية والحفاظ عليها))[٦١] فأن الظرف الحالي الذي يمر به العراق يعزز هذه المقوله ويدعمها لانها منسجمة ومتناغمة مع الحقيقة الابرز بين الحقائق التي تمخض عنها الجدل الفكري والصراع السياسي والعنف بأشكاله المختلفة القائلة بأن فكرة الغاء الاخر واقصائه لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح.

لقد شهد العراق تحولات سياسية للفترة الممتدة من ١٤ تموز ١٩٥٨– ٩ نيسان٢٠٠٣ وعلى الرغم ما صاحب هذه التحولات من عنف سياسي وضعف المشاركة السياسية وغياب ثقافة التسامح فأن الدولة ومؤسساتها ظلت قائمة ولم يحصل ماحصل في عام ٢٠٠٣ بعد الاحتلال الامريكي للعراق وتخطيط الادارة الامريكية لتقويض ركائز الدولة العراقية وحدوث فراغ سياسي وامني واجتماعي خطير لم يسبق له مثيل، وهذا ما طرح اشكالية اعادة بناء الدولة

[٦٠] **د . عبد الحسين شعبان. فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي . مصدر سابق ص ١٦٢.**
[٦١] **مارسيل بريلو – جورج لبسكييه. تاريخ الافكار السياسية. مصدر سابق ص ٥٧.**

العراقية من جديد وضرورة ارساء قيم الديمقراطية وحقوق الانسان والتسامح ولم يكن لهذه التطورات نصيبها من النجاح نتيجة عوامل داخلية واقليمية ودولية تأتي في مقدمتها العوامل الداخلية المتمثلة في طبيعة النخب السياسية والحزبية والعلاقات القائمة بينها ورؤيتها للحل المنشود، فبعد تجربة قاسية مريرة شهدتها السنوات الماضية بدأت هذه النخب تتحدث عن ضرورة طرح مشروع وطني يكون بعيداً عن المحاصصة الطائفية والعرقية يمكن ان يساهم في ايجاد الحلول للمشاكل التي تطفوا على الساحة العراقية.

كان الخطأ الاول الذي ارتكبته هذه النخب هو الاسراع في تشكيل السلطة السياسية وليس بناء الدولة ومؤسساتها لتكون الحاضنة للمشروع الوطني الذي طال انتظاره.

اما الخطأ الثاني فكان تشكيل السلطة السياسية على اساس طائفي وعرقي واصبحت عائقاً امام بناء الدولة بعدما تغلغلت هذه المحاصصة الى مفاصل عدة في المؤسسات الحكومية والخطأ الثالث وهو اشدها خطراً وفتكاً هو الصراع على السلطة وانعدام الثقة بين السياسيين العراقيين حيث مكنت الاخرين من التدخل بشكل سافر في الشأن العراقي سواء كان ذلك الاخر محتلاً او دول جوار بما يؤمن مصالحهم ولايصب في المصلحة الوطنية.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال المؤتمرات التي عقدتها دول الجوار للعراق بالاضافة الى الطرف الامريكي حيث ما فتأت هذه الدول تعلن عن دعمها للعملية السياسية وحرصها على وحدة وسلامة واستقرار العراق ولكن واقع الحال يشيرعكس ذلك لان الحقيقة التي بات يدركها الجميع أن الثالوث البغيض: الاحتلال والارهاب وبعض دول الجوار تشاركوا" وعملوا سوية على تصديع نسيج المجتمع العراقي وخلق حاله من الافتراق بلغت ذروتها في بعض

الاحيان الى حد الاحتراب بين ابناء الشعب وتعمق هذا الشرخ في ظل الصراع على السلطة ونزعات الاستئثار والمحاصصة والفساد المالي والاداري[٦٢]".

وهذه المسأله تضع صانع القرار السياسي في العراق أمام حقيقة ان حل المشاكل التي نعاني منها تقع على كاهل ابناءه ولاضير ان نتلقى بعض الافكار البناءة والدعم من هذا الطرف او ذاك ولكن لايمكن بأي حال من الاحوال ان يحل ويتحدث الاخر نيابةً عنا لآن هذه مفارقة لايمكن قبولها بعد ان كشفت الاحداث والوقائع التقاء منطق الاحتلال وبعض دول الجوار على اللعب على ورقة خطيرة هي ورقة الطائفية والعرقية وهم بذلك ارادوا أن يقولوا العراق فيه العرب والاكراد والتركمان وبقية الاقليات وفيه الشيعة والسنة والمسيحين وما نصنعهُ هو تمثيل الواقع العراقي بكل مكوناته!

ولم يدرك هؤلاء او هم ارادو ذلك ان يرسموا للعراق صورة قاتمة وغير واضحة المعالم والالوان ولاتعبر عن تاريخه ودوره الحضاري، ان هذه التعددية وهذا التنوع التي ينظر اليها البعض على انها نقطة ضعف وعدم استقرار فأنها في الحقيقة والواقع مصدر قوة للدولة والمجتمع اذا ما تم التعامل معها برؤية صحيحة تتسم بوضوح الاهداف والوسائل وتضع المصلحة الوطنية فوق اي اعتبار اخر ولنا في التجربة الماليزية مثال ساطع يمكن الاستشهاد به ((فماليزيا عاشر اسرع اقتصاد نمواً في العالم خلال الفترة ١٩٧٠–١٩٩٠ مثال على دولة متنوعة اثنياً وناجحة اقتصادياً، اذ ان ٦٢٪ من السكان ملاويون و٣٠٪ صينيون و٨٪ هنود))[٦٣] وعلى الرغم من هذا التنوع الاثني فالانموذج الماليزي القائم على قبول الاخر والتواصل معه انتج استقراراً سياسياً واجتماعياً[٦٤] قاد البلاد الى نجاحات عديدة .

---

[٦٢] أحمد الناجي . المصالحة خيار واعد على صدارة المهمات الوطنية في عراق الصراع والمصالحة . كتاب الحوار المتمدن ، دار الشروق للطباعة . الطبعة العربية الاولى . بغداد ٢٠٠٧ ص ١٢٩

[٦٣] تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤ الحرية الثقافية في عالمنا المتنوع . عرض مصطفى محمود عبد السلام المستقبل العربي السنه ٢٧ العدد ٣١١ ١ ٢٠٠٥ ص ١٧٣

[٦٤] احمد محمد مطر . الرأي العام العراقي – الى اين . اوراق عراقية ، مركز الفجر للدراسات العراقية العدد ٣ تموز ٢٠٠٥ ص ٢٢

وفي خضم هذه التجاذبات والصراعات جاءت فكرة المصالحة الوطنية وهي فكرة جميلة سبقتنا اليها الكثير من الدول والشعوب[٦٥] حيث يدعوا برنامج المصالحة الوطنية من بين جملة أمور الى نبذ العنف بجميع اشكاله والالتزام بحل الخلافات بوسائل سياسية وقانونية ويحبذ القيام بعملية سياسية شاملة ترمي الى بناء الثقه وطمأنة من يشعرون بالخوف والاقصاء (لآن جوهر المصالحة يقوم على استحضار العقل الغائب واستدعاء الحكمة المغيبة ومنطقها يبدأ من مثابة التسامح والحوار مع الاخر والتعايش معه والاعتراف به واطارها العدل والسلم الاجتماعي والتآخي والتساكن والالفة ونبذ الانتقام ومجمل هذه القيم النبيلة نابعة من روح الدين الاسلامي والديانات السماوية الاخرى ومتماهية مع نداءات الضمير الانساني والفكر الحر الخلاق[٦٦].

والقيام بهكذا مهمة وكما جاءت في وثيقة العهد الدولي ((مسؤولية الحكومة تجاه مواطنيها بغية ارساء مؤسسات وممارسات تتسم بالشفافية يخضع من خلالها موظفوا الدولة للمحاسبة عن افعالهم والاعتراف بأن امن وازدهار وسعادة الشعب العراقي يتوقف على التزام الحكومة العراقية بمواصلة الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الاساسية[٦٧].

وهكذا باتت الدعوة الى المصالحة الوطنية الحديث الشاغل للكثير من السياسيين والاعلاميين وعموم المواطنين سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي او الاقليمي او الدولي حتى لايكاد خطاب من خطب الرئيس الامريكي دبليو بوش يخلو من موضوع المصالحة الوطنية وضرورة الربط بين التقدم الامني الحاصل على الارض وتعثر العملية السياسية!

واذا كان الجميع مهتماً الى هذا الحد بموضوع المصالحة الوطنية فأن المصالحة ليست شعاراً يرفع وانما يجب ان تكون ((استراتيجية العمل

---

[٦٥] للاطلاع على بعض التجارب في المصالحة الوطنية انظر . احمد الناجي المصالحة خيار واعد على صدارة المهمات الوطنية. مصدر سابق. ص١٣٠ .

[٦٦] المصدر نفسه. ص ١٣١

[٦٧] صوت العراق www.sotaliraq.com .2007/4/17

للمرحلة القادمة))[٦٨] كما يرى السيد نوري المالكي رئيس الوزراء العراقي) اي ان المسألة لاترتبط بطرح الفكرة وتسويقها بل ان المهم والصحيح هو تهيئة مستلزمات نجاحها واول هذه المستلزمات هي رؤية الاطراف المختلفة لفكرة المصالحة الوطنية وكيفية تحقيقها والنتائج المرجوة منها .

ونقطة الشروع في هذا المسعى هوما اطلق عليه الفلاسفة والعلماء ((النسبية)) نسبية الحقيقة والمعرفة وان نقبل بمبدأ ((قابلية الوقوع في الخطأ)) وان نحذو حذو فولتير في اخذه على محمل الجدية مسألتين: قابلية البشر للوقوع في الخطأ والتسامح[٦٩] ويمكن التعبير عن ذلك في الصيغة الاتية ((قد أكون انا على خطأ وقد تكون انت على صواب. وقد يكون هذا مدخلاً كافياً للوصول الى تسامح متبادل والى مجتمع صالح حسب رؤية كارل بوبر والذي يضع هذه الصيغة في ثلاث مبادىء او ثلاثة اجزاء[٧٠]:

(١) قد اكون انا على خطأ وقد تكون انت على صواب.

(٢) دعنا نتفاهم حول الامور بشكل عقلاني.

(٣) قد يكون من شأننا ان ندنو من الحقيقة حتى ولو لم نصل الى اتفاق.

النقطة الرئيسية هنا هي فكرة الاقتراب من الحقيقة حتى وأن لم نتفق لآنه من الاهمية بمكان أن نتمكن من التعلم بعضنا من البعض لنرى بالتالي اننا كنا مخطئين وأنه لمن المهم الا نطلب اكثر مما ينبغي من نقاش عقلاني.

ولكن لم يتحقق هذا النوع من التفاهم كما يطلب كارل بوبر للوصول الى مقاربة فكرية وسياسية تساعد على الحل، واثبتت تجارب انظمة الحكم المتعاقبة على العراق منذ عام ١٩٥٨ ولحد الان ان القاسم المشترك الاعظم الذي يجمع بينها هو غياب ثقافة التسامح والاعتراف بالاخر وممكن الخطورة في هذا السلوك "ان التنشئة الاجتماعية والسياسية انتجت سلوكاً اجتماعياً

---

[٦٨] جريدة الصباح العدد ١١٣١ ٥ حزيران ٢٠٠٧

[٦٩] كارل بوبر . التسامح والمسؤولية الفكرية . مصدر سابق.ص ٨٦ .

[٧٠] المصدر نفسه، ص٩١.

وسياسيا جديداً تولد بعد سقوط نظام صدام حسين لايختلف عن السلوك الاجتماعي والسياسي القديم الذي ساد اثناء حكم حزب البعث والمتمثل بعدم القبول والاعتراف بحق الاخر في الاختلاف"[٧١].

واتساقا مع هذه الافكارتبدوالساحة العراقية في امس الحاجة الى جدل فكري وسياسي يهدف للوصول الى مشتركات ((مقاربات)) من شأنها ان تجسر الفجوة بين الاطراف المختلفة وتؤسس للغة الحوار العقلاني البناء الذي هو غائب عن الساحة العراقية والتوافق على ان ((امثل سبيل لتصويب مسار الحياة السياسية الوطنية هو اعادة تأسيس السياسة من مدخل الاعتراف المتبادل والبحث عن جوامع ومشتركات من شأنها تفريغ الازمة من عوامل التفجر وترشيد الصراع السياسي ليصبح اكثر قابلية للضبط والمعالجة المرنة عند الازمات))[٧٢].

ويمكن القول من خلال ما تقدم ان على كافة القوى السياسية والاجتماعية والدينية ان تنطلق من حقيقة ان الاختلاف هو القاعدة وان التماثل هو الاستثناء وان صعوبة الوضع في العراق وتعقيداته لاتعني بأي حال من الاحوال استحالة الحل بل ان العكس هو الصحيح فحينما تكون ((التحديات كبيرة فأن الاستجابة يجب ان تكون بمستوى هذه التحديات)) كما يرى الفيلسوف ارنولد توينبي[٧٣].

وهذا يتطلب أن تستند الفلسفة السياسية وبرنامج العمل على النقاط الاتية:-

١. التأكيد على قيمة الانسان العليا وهذا ما دعت اليه الديانات السماوية والايات كثيرة في القرأن الكريم في هذا الصدد كما في قوله تعالى ((

---

[٧١] رعد سالم حافظ : هل يمكن اقامة ديمقراطية في العراق حوليات الاداب والعلوم الاجتماعية الرسالة ٢٥٤ الحولية ٢٧ الكويت ٢٠٠٦ ص ٢٤

[٧٢] عبد الاله بلقزيز . جدليات الصراع والتوافق في المغرب نحو اعادة كتاب تأريخنا السياسي المعاصر . المستقبل العربي . السنة ٢٨ العدد ٣١٧ اب ٢٠٠٥ ص ١٣٤ .

[٧٣] د. احمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٩٥ ص ٢٧١.

[illegible]))[٧٤] كما ان الوظيفة الاجتماعية للقانون تهدف للحفاظ على حياة الانسان وحقه في حياة حرة كريمة من خلال تنظيم العلاقة بين المواطنين من جهة وعلاقتهم بالسلطة السياسية من جهه اخرى .

٢. اشاعة الثقافة التي تحل النزعة النسبية في وعي السياسة والمجال السياسي محل النزعة الشمولية وتحل التوافق والتراضي والتعاقد والتنازل المتبادل محل قواعد التسلط والاحتكار والالغاء فتفتح المجال السياسي بذلك امام المشاركة الطبيعية للجميع وتفتح معه السلطة امام ارادة التداول السلمي عليها[٧٥].

٣. ان الهدف النهائي من اي نظام سياسي هو تحقيق العدالة ((فما كان مطلوباً في جمهورية افلاطون وما هو مطلوب في الفكر السياسي المعاصر هو في نهاية المطاف العدالة))[٧٦] وترسيخ قيم المساواة الانسانية بين فئات المجتمع وافراده واعتبارها اسمى من الاختلافات العقائدية او العرقية او الدينية او الجغرافية الجهوية او غير ذلك وما يرتبط بذلك من التسامح وقبول الاخر والتعايش والايمان بالحوار كسبيل لحل الاختلافات وهذا لن يتحقق الا عندما تتمكن الدولة من بسط سلطتها المادية والقانونية لتكون بديلاً عن كل المظاهر غير القانونية ولان الدولة الدستورية القوية و العادلة هي غاية ووسيلة في الوقت ذاته.

---

[٧٤] **سورة الاسراء الاية ٧٠**

[٧٥] **عبد الاله بلقريز . الانتقال الديمقراطي في الوطن العربي العوائق والممكنات في علي خليفة الكواري واخرون المسألة الديمقراطية في الوطن العربي سلسلة كتب المستقبل العربي ١٩٠ بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٠ ص ١٣٧**

[٧٦] **محمد عابد الجابري . قضايا في الفكر المعاصر – مصدر سابق ص ٧٢**

٤. تبني المشروع الوطني من قبل الاحزاب السياسية ((وبأن تكون احزاباً وطنية بمعنى انفتاحها على مختلف المواطنين والابتعاد عن الولاء الفئوي الضيق وتوسيع دائرة الانتماء لهذا الحزب او ذاك بحيث لايكون سنياً او شيعياً او كردياً وان تكون هذه الاحزاب ديمقراطية وتطبق مبدأ ((الديمقراطية المركزية)) في علاقاتها مع اعضائها و مع الاحزاب الاخرى وان تكون احزاباً مدنية بمعنى عدم حملها للسلاح بصورة مباشرة او غير مباشرة[٧٧]. وان دور الاحزاب السياسية والنخب الوطنية وقوى المجتمع يتلخص بأنجاح مشروع الدولة الوطنية فهي الضمانة لانجاح مشاريع التعايش والسبيل لوقف مسلسل العنف الطائفي[٧٨].

٥. العمل على تفعيل المادة ((١٤٢)) من الدستور بخصوص اجراء التعديلات المطلوبة والتي تشمل كلاً من الديباجة وهوية العراق وقانون توزيع الثروات النفطية والعلاقة بين الحكومة المركزية وحكومات الاقاليم، وقضية كركوك والتأكيد على ان التعديلات هي قضية دستورية من جانب وتعزيز لمشروع المصالحة الوطنية من جانب اخر.

٦. ضرورة اتخاذ الاجراءات القانونية الفعالة لظاهرة الفساد المالي والاداري والتي بدون استئصالها. لايمكن الحديث عن اعادة الاعمار واحداث تنمية اقتصادية وتوفير فرص للعاطلين عن العمل وتقديم الخدمات الاساسية للمواطنين.

---

[٧٧] **محمد عبد الجبار الشبوط ، دور الاحزاب السياسية في تحقيق المصالحة الوطنية ، الاسلام الديمقراطي العدد ١٧ السنه الثالثة كانون الاول ٢٠٠٦ ص١٧**

[٧٨] **حسين درويش العادلي – فشل مشروع الدولة . الاسلام والديمقراطية . العدد ١٨ السنة الثالثة ايلول ٢٠٠٧ ص ٧٩**

الخاتمة

لقد اتضح لنا ماتقدم في هذه الدراسة مايأتي :-

١. اذا كان التاريخ الحديث قد شهد ولادة مفهوم التسامح فأن الديانات السماوية والمدارس الفكرية والفلسفية قد دعت الى التسامح بتعبيرات وصياغات متعددة قبل ذلك بكثير.

٢. ان التسامح يعني حق الفرد او الجماعة في الاختلاف من جهه وواجب الفرد او الجماعة احترام حق الغير في الاختلاف من جهه اخرى، والاقرار بـ((شرعية الاختلاف)). لأن البديل عن التسامح هو التعصب والتطرف والعنف.

٣. ان الصراع الذي كان قائماً طيلة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يهدف الى الهيمنة والنفوذ والمصالح وليس من اجل الديمقراطية وحقوق الانسان كما ترى الولايات المتحدة والسلام العالمي كما كان يعلن الاتحاد السوفياتي.

٤. نجحت الولايات المتحدة بالهيمنة والتفرد في قيادة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ورفض الاخر واقصائه في ظل ما يسمى ((النظام العالمي الجديد)) تحت ذريعة نشر الديمقراطية ومحاربة الارهاب.

٥. عند الوقوف على طبيعة العلاقة بين الانا والاخر على صعيد الوطن العربي يمكن القول ان مختلف الايديولوجيات التي سيطرت على الساحة السياسية في الوطن العربي خلال القرن الماضي وحتى يومنا هذا كانت بعيدة كل البعد عن ثقافة التسامح فكرا وسلوكا.

٦. تتحمل الولايات المتحدة المسؤولية القانونية والاخلاقية جراء سياساتها في العراق التي قادت الى زيادة دائرة العنف والارهاب بسبب الفراغ السياسي والامني الذي حدث نتيجة تقويض ركائز الدولة العراقية والذي وجدت فيه بعض دول الجوار فرصتها الذهبية لتحقيق اهدافها في العراق.

٧. ان العراق بحاجة الى ثقافة سياسية تغلب لغة الحوار على لغة الصراع وبأنها السبيل الوحيد لحل الخلافات والمشاكل وان سياسة الاقصاء لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح.